ثلاثة وثلاثين قرن من

تاريخ الامازيغيين

تأليف : محمد شفيق



ثلاثة وثلاثين قرن من

تاريخ الامازيغيين

تأليف : محمد شفيق



المقدمة

من الاقوال الشـائعة التي هي عند عامة الناس بمثابة الحكم الفلسفية أن «التاريخ ذاكرة الشعوب». وإذا كان الأمر كذلك، فلا شك أن الشـعوب تتذكر ما مر بها من العقود والقرون والعصور كمـا يتذكر الأفـراد ما مـر بهم من الأيام والشـهور والسـنين. والمعلـوم أن من الأفـراد من له ذاكرة قوية، ومنهـم من له ذاكرة ضعيفـة. لكنهم يلتقون جميعا فـي ميلهم الى زخرفة ذكريات الماضي وتجميلها، وإلى طرح كل ما هو عبء ثقيل على ضمائرهم وإزالة كل غبشـة تشين صورة أيامهم الفارطة كما يشتهون أن يتخيلوها. ولهذا يكره الأفراد وجود شـهود صدق على ماضيهم. ولا تختلف في ذلك الشـعوب عن الأفراد. غير أن بعضها ينشغل بتكاليف الحاضر عن أخبار الماضي، باسـتمرار، فتمر به الأزمان تلو الأزمان، إلى أن يقتصر علمه بما سـلف من دهره على ما يحكيه له غيره. والغالب أن ذلك «الغير» لا يمكن أن يكون إلا ندًّا سبق له أن كان عدوا للأسـلاف والأجداد، أو كان لهم خصما، في أحسـن الحالات.

ولعـل الأمازيغيـين خير نموذج لـلأمم التي لم تكـن لها ذاكرة خاصة بهـا، مادامت الذاكرة هـي تدوين السـيرة الذاتية. فكأنَّ

إسـهامهم في صنع التاريخ مع أطراف متعددة متعاقبة، خلال ما يربو على ثلاثة آلاف سـنة، عوَّدهم أن يوطنوا أنفسـهم على نسـيان الماضي، لأن ذكـره، حينما يتكرر، لاينتـج منه إلا التبجح ونوع من التشـبب كالذي يهواه الشـيخ الهـرم الكُنتي الفاقد الأمل في المستقبل. والواقع أن التاريخ لايمكن أن يكون الا «علما تحت الحراسة»[1] لأن البحث العلمي الحق يقتضي من الباحث أن يتجرد من كل ما هو ذاتي في تفكيره ووجدانه.

وإذا كان مـن المسـتحيل على المـؤرخ ـحتى فـي عصرنا هذا المسـتوعب لمفهـوم «الموضوعيـة» ـ أن يتجـرد مـن المشـاعر الوطنيـة، أو القومية، أو الدينية، ومن التصـورات المذهبية، فما بالك بمن أرَّخوا لماجريات العصور الغابرة، إذ كانت العصبيات، على اختلاف أشكالها ودرجاتها، هي قوام التماسك الاجتماعي، وكان التعصب للدين، أو للجنس والعرق، يعد بمثابة الفضيلة الاولى!.

إن فـي موقـف الأمازيغيين تجاه ماضيهم لنوعا مـن النبل والشـهامة، فكأنَّ لسـان حالهم يقول: فليكن ذلـك الماضي ما كان، إنه لا يهمنا.

لكـنَّ فيه أيضـا نوعا من الغفلة والسـذاجة، مـادام لأقوال النـاس في النـاس تأثير على تصـورات عامة النـاس وتخيلاتهم وتبلور آرائهم سـواء أكانت تلك الأقـوال صادقة أم كانت كاذبة. وما أكثر ما قاله النـاس بخصوص الأمازيغيين منذ فجر التاريخ،

1 ـ هذا عنوان كتاب فرنسي لصاحبه "مارك فيرُو":
Marc Ferro "L'histoire sous surveillance", Editions Calmann -Lévy, Paris, 1985.

والأمازيغيون سكوت. ولعلهم اليوم أحسن الأمم حظا في القدرة على استطلاع الحقائق عن غابر أزمانهم بكيفية موضوعية، ذلك لأنهم لم يتيحوا لأنفسهم قط فرصة تزييف ولا تزويق؛ عهدتهم في تحليل تاريخهم وتركيبه كلها على من كتبوا في شأنهم بالتوالي ابتداء من عهد الفراعنة الأول وانتهاء بعهد ضباط «التهدئة الفرنسية»، أي على خصوم تنطبق على رواياتهم لتاريخ الأمازيغيين، أحسن ما يكون الأنطباق، القولة المأثورة المقتبسة من الذكر الحكيم «وشهد شاهد من أهلها...» وقد كان أولئك «الأهل» الشهود هم الكتبة من المصريين القدماء، ومن اليونان والفينيقيين والرومان والوندال والبيزانتيين والعرب والفرنسيين والأسبانيين.

أما المشهود على أمرهم، فلو لم يزل بعضهم ـ أو جلهم؟ ـ يحمل ورقة تعريفه، لأيقننا أنهم اندثروا منذ زمان، وصاروا جميعا خبر كان.

وورقة تعريف الأمازيغي، في وقتنا الحاضر، هي قدرته على الافصاح بلغة «الزاي»[1]، أو تعاطفه معها، أوعدم تنكره للأجداد «محلقي الرؤوس، آكلي الكسكس، لابسي البرنس» وهو أضعف

1 ـ حرف (الزاي) من الحروف التي يكثر سماعها في اللغة الأمازيغية، وهو نوعان: زاي مرقق وزاي مفخم. والتمييز بينهما في النطق والكتابة ضروري، لأن بالترقيق والتفخيم يفرق بين مدلول ومدلول. «ئزي»، بالزاي الرقيقة، هو الذبابة؛ بينما «ئزي» بالزاي المفخمة هو المرارة التي تفرز المِرّة. وقد كان ابن خلدون يرسم الزاي الامازيغية المفخمة صادا في جوفها زاي مصغرة، أما الناصري (وغيره) فكان يرسمها صادا، وهي الأصل في اسم «أزيلا» المحرف الآن إلى «أصيلة». والنسبة الصحيحة ألى تلك المدينة هي «الزيلاشي»، بشين تستحق أن يُبحث عن سر ظهورها.

الإيمان. أما من يدعي أنه براء من «الشلحاء» و«الشلوح» معا، فله ذلك، سواء أ صرَّح أم لمَّح أم أسرَّ، لأنه حر في أن ينتسب أو يتنسَّب كما يشاء، حر حتى في ترجيح جانب المعرفة الأسطورية على جانب المعرفة العلمية، ما لم يمل إلى فرض معتقداته على غيره، ولم يجعل تنسُّبه وسيلة للتسلط والهيمنة.

الرباط 08 صفر 1409 الموافق 21 شتنبر 1988 المؤلف

إمازيغن هم «البربر»

إمازيغن في اللغة «البربرية» جمع، مفرده: أمازيغ، وهو الاسم الذي يسمّي به «البربر» أنفسهم. مؤنث أمازيغ هو تامازيغت، يطلق على المرأة وعلى اللغة، عند قبائل التوارك المنتشرة في قلب الصحراء الكبرى، يُسكّن حرف الزاي في «أمازيغ» ويقلب إما هاء، وإِما شينا أو جيما، بحيث تنطق اللفِظة «أماهغ» عند التوارك الجزائريين، و«أماشغ» عند التوارك الماليين، و«أماجغ» عند التوارك النيجيريين (Ency. Berb IV 563).

كلمة أمازيغ، من حيث صيغتها اللغوية، اسم فاعل، وهي صيغة نادرة لم يوضع على وزنها إلا عدد قليل من أسماء الفاعل، وهي مشتقة حسب ما هو متوفر من القرائن، من الفعل «يوزغ» ـ المنطوق «يوهغ» عند التوارك ـ الذي معناه غزا، أو أغار. ويرى بعض اللغويين أن «أمازيغ» مشتق من فعل آخر اعتبروه مُماتا في اللهجات كلها، قد يكون هو الفعل «إزيغ» أو الفعل «يوزاغ» (Ency.Ber. IV, 566) وهو افتراض انبنى على الخلط بين ثلاثة أفعال أخرى، هي «ياغ» بمعنى أصاب أو اعترى، و«ياغ» أو«يوغ» بمعنى أخذ أو نال أو سقط أو اشتعل أو أضاء، و«يووغ» بمعنى رعى في معنى انتجع. وعلى أي حال، «أمازيغ» اسم مشرب معنى النبل والشهامة والاباء، سواء في المغرب أو عند التوارگ

(De Foucauld, II 673) . قد يكون ذلك ناتجا من مجرد الاعتزاز بالنفس من قبل إمازيغن، لأن الشعوب تتخذ عادة أنسابها عنوانا للعزة والمناعة، وهو ما نعتقده.

تسمية «البربر» أنفسهم بـ«إمازيغن» ضاربة في القدم، وبها عرفهم أقدم المؤرخين، وعرفهم بها أقرب جيرانهم إليهم، وهم المصريون القدماء، مع تحريف لاسمهم في النطق، ثم في الكتابة، له مبرراته اللغوية. كان المصريون القدماء في عهد «راعامسيس» الثالث يسمونهم «ماشوش» لأن اللغة المصرية في ذلك الوقت كانت تقلب الزاي شينا، والغين شينا أيضا، بعد قلبه خاء، وتفصل في الكتابة بالواو (بواو فارقة) بين الحرفين المتجانسين (Grammaire, 27,28,29) وقد ذكر المؤرخ اليوناني هيكاتايوس Hekataios إمازيغن في القرن السادس قبل الميلاد باسم «مازيس Mazyes» وذكرهم هيروضوتوس Herodotos في القرن الخامس ق. م. باسم «ماكسيسMaxyes ». أما المؤرخون اللاتينيون فقد أوردوا الاسم نفسه محرفا إلى «مازاكس Mazax أوMazaces » أو إلى «مازيكسMazikes »، وهي أسماء جموع (Collectifs) بمعنى واحد، أطلقوها على «الشعب النوميدي»(Dictionnaire latin, 956) . ويظهر أن أول قبيلة أمازيغية كبرى احتكت بقدماء المصريين احتكاك حرب (1227 ق. م.) كانت تسمى «ليبو» وكانت مستوطنة لأراضي ليبيا الحالية (Berbères، عن هيروضوتوس، 11). وقد اختلط الأمر على المؤرخين الأول، ومنهم هيروضوتوس، فصاروا يسمون إمازيغن تارة باسمهم هذا محرفا قليلا أو كثيرا، وتارة باسم «ليبيا Libye

» الدال في شعر هوميروس Homeros على الأراضاي الممتدة من تخوم مصر القديمة شرقا إلى المحيط غربا (Dictionnaire grec, 1190). ولما أنشئت المستعمرات الفينيقية على شواطئ أفريقية الشمالية وازدهرت ولفتت أنظار اليونان والرومان إلى الساحل الجنوبي للبحر المتوسط، أخذ الكتاب الاغريق واللاتينيون يسمون الأمازيغيين عامة بـ «الأفارقة» ويصنّفونهم إلى ليبيين و نوميديين و موريين، انطلاقا من الشرق وانتهاء بالمغرب. وكان منهم من يخلط بين هذه الأسماء (Scylax، في Le Maroc chez les auteurs anciens ، ص 18، وCesar ، في La guerre d'Afrique، ص 4) فصاروا يسجلون أسماء المجموعات القبلية الأمازيغية بشيء من التفصيل، يصعب، بل يتعذر اعتماده في ترتيب تلك المجموعات من حيث أحجامها ولا من حيث استمرارية وجودها في الزمان حاملة اسمها الأول، ولا من حيث انتشارها في المكان، وذلك نظرا لما طرأ من تحريف في النطق والتسجيل، من جهة أولى، ولكون تلك القبائل تتألف في معظمها من عشائر البدو الرحل، من جهة ثانية، ثم نظرا لاعتبار أمر لابد من اعتباره هو أن من المحقق في ضوء ما هو ملحوظ إلى يومنا هذا، أن المترجمين للقبائل عن سماع عبر الزمان أو عبر المكان، كثيرا ما يخلطون بين الجزء والكل، من جهة ثالثة. وعلى سبيل الاشارة لا الترجيح نستعرض هنا أسماء القبائل الأمازيغية القديمة كما استقرأها الأستاذ ديزانج Desanges في تعليقه على بلينيوس الأكبر (Histoire Naturelle, V) مجتهدا في رسم خريطة لمواطن كل قبيلة:

1 ـ حسب ديزانج كانت قبيلتا «ماسايسيلي أو ماسايسولي، Masaisuli, Masaesyli» و«بانيورايي، Baniurae » تستوطنان شماليّ المغرب الأقصى بين المتوسط شمالا والمحيط غربا ونهر سبو جنوبا، وكانت قبيلة «أوتولولي، Autololes » منتشرة في السهول الأطلنتية بين بوراكَراكَ وتانسيفت الحاليين. وكانت قبيلة «كاناريي، Canarii » نازلة بناحية فيكَيكَ الحالية.

2 ـ وفي المغرب الأوسط كانت القبائل النوميدية Numidia مستقرة أو شبه مستقره في شرقي البلاد، بينما كانت قبائل «كَايتولي، Gaetulia » تنتجع في الأنجاد العليا Les Hauts Plateaux وقبائل «أيثيوبيا، Aethiopia » تشغل المنطقة الممتدة جنوب الأطلس الصحراوي .

3 ـ وفي تونس الحالية كانت القبائل النوميدية نفسها منتشرة في غربيّ البلاد من الساحل المتوسطي إلى ناحية القيروان الحالية، ممثّلة أحسن تمثيل في قبيلة «ماسيلي، Massili, Massyli» أو «ماسولي، Massuli » المنطوق اسمها هكذا بسين مضعفة باعتبار النطق الفرنسي والمنطوق اسمها، حسب ما نرجح «مازولي» أو «مازيلي» بالزاي، لأن السين المضعفة كانت بمثابة الزاي، عند اللاتينيين قبل تبنيهم Y و Z اليونانيين. (Traité de grammaire, 33). أما اراضي «زاوكَيتانا أو زاوغيتانا، Zeugitana » و «بيزاكينا أو بيزاقينا، Byzacena» فكانت خاضعة للنفوذ القرطاجي، قبل الاحتلال الروماني لها .

4 ـ وفي ليبيا نجد، حسب ديزانج قبيلة، «فازانيي، Phazanii

» من الجهة الجنوبية الغربية للجبال المعروفة الآن بجبل نفوسة، ثم نجد بالتتابع على مقربة من الساحل المتوسطي، وانطلاقا من الغرب تجاه الشرق، قبيلة «ماكايي، أو ماقايي، أو ماغاييMacae »، فقبيلة «ناسامونيNasamones »، فقبيلة «مارماريدايMarmaridae »، فقبيلة «ماريوتايMareotae »، وهي الأخيرة من جهة الشرق، تمتد مواطنها إلى بحيرة قرب دلتا النيل كانت تسمى باسمها. وفي عرض الصحراء الليبية، حيال الخليج من جانبه الغربي، كانت توجد مواطن قبائل «كَارمانتي، أو غارامانتي، أو جارامانتيGaramantes».

من المعلوم أن المغرب الأقصى مع الجزء الأكبر من المغرب الأوسط كان يعرف عند اليونان باسم «ماوروسياMaurusia »، هم الذين سموا هذه المنطقة بهذا الاسم لأول مرة، فأخذه عنهم الرومان وقالوا «ماوريتانياMauritania » وهنا يجب لفت النظر إلى أن الاسم اليوناني Maurusia قريب من حيث مادته اللغوية من الفعل الاغريقي «ماورسوMaurso » الذي معناه «أظلم». فهل معنى ذلك أن اليونان كانوا يقصدون بـ «ماوروسياMaurusia » أرض الظلمات، لأن الشمس تغرب فيها بالنسبة إليهم ؟ وهل لذلك علاقة بما كان العرب يسمونه «بحر الظلمات»؟ هذان سؤالان يستحقان أن يبحث عن جواب لهما. أما الجزء الشرقي من المغرب الأوسط وما يليه من غربيّ تونس الحالية، فكان يسمى «نوميدياNumidia » وكانت الأراضي المحاذية للشاطئ المتوسطي شرقا وشمالا تسمى «أفريقياAfrica » والنسبة إليها في اللاتينية هي «آفرAfer » المجموعة على



(زعماء قبائل أمازيغية كما رسمتهم ريشة فنان مصري حوالي سنة 1300 قبل الميلاد، عثر على الرسم في ضريح الفرعون ستي الأول (من الأسرة التاسعة عشرة)

«أفري.Afri » فيما يهم الأناسيَّ، و «أفريقانوس.Africanus » أو «آفريقوس.Africus » في الشعر خاصة، فيما يهم الحيوانات والأشياء (Dictionnaire français-latin, 59). وبقدر ما يمكن الفصل بأن اسمي «ماوريتانيا، Mauritania أو ماوروسيا، Maurusia» و «نوميديا.Numidia » ليسا أمازيغيين، بقدر ما يمكن ترجيح أن هذه الألفاظ الثلاثة «آفر.Afer » و «أفريقوس، أو أفريغوس، أو أفريكوس، Africus » تنتمي من حيث صيغتها إلى الحقل اللغوي الأمازيغي، وحتى من حيث مدلولاتها. لكن لاسبيل إلى الجزم في الموضوع، لأن اللغة اللاّتينية كانت تلحق بالأسماء زوائد إعرابية متغيرة، تظهر حينا وتختفي حينا، من جهة، ولأن حروف الهجاء في نظام الكتابة اللاتينية تطور عددها مع الزمن، فتغيرت رمزية بعضها الفونولوجية (Traité de grammaire, 33...). ولهذا السبب، وللأسباب الأخرى المذكورة آنفا، يكاد يتعذر على المؤرخ حاليا أن يقارن بين أسماء القبائل الأمازيغية التي وردت في المؤلفات اليونانية واللاتينية القديمة، وبين أسماء القبائل التي عددها ابن خلدون في عصره، إلا أن اسم قبيلة «لواتا» الشهيرة أورده بعض كتاب الاغريق واضحا لا غبار عليه: «لواتا، أو لواتاه.Louâtah « كما ذكروا اسم «إفوراقس، أو إفوراغس، أو إفِورن.Ifuraces » الذي يمكن ان يشخص في «إفوغاس» التوارك أو في «يفرن» (Les Berbers, Fournel, 98..103). ويجوز أن نتساءل: هل من علاقة بين «كاناريي، Canarii» والجزر الخالدات؟ أو بين «أوتولولي.Autololes » و «والال، أيت والال»؟ وبين «كايتوليا.Gaetulea » و«كودالا»؟

وبين «مازيلي، مازولي، Massili, Massyli, Massuli » و«مزالا، أيت مزالا، إمزيلن»؟ وبين «زاوكَيتانا، زاوغيتانا.Zeugitana » و «زواغا، ئزكَاغن»؟ وهل لاسم «فازانيي.Phazanii » صلة بنفوسة، أو على الأرجح بالفزّان الحالية، التي عرفت عند التوارك باسم «تاركًا»؟ (Dictionnaire Touareg, IV, 1588). أما «بانيورايي.Baniurae » فقد اقترح باحث مغربيٌّ أن نشخصها في «بني واراين» إلا أن ذلك مستبعد، لأن الاسم الأمازيغيَّ لهذه القبيلة هو «أيت واراين» وفي العهد الاسلاميِّ ترجمت «أيت» إلى «بني».

سبب تسمية
إمازيغن بـ «البربر»

كانـت الشـعـوب قديما قليلـة التواصل بينهـا، وكانت تعتبر أن مـن لا يفصـح عمـا يريد فـي لغتها هـي لايمكـن أن ينعت إلا بالعُجمـة، أي بالخـرس والبكامة. ولـذا كان للعرب عجمهم، ولليونـان عجمهم، هـم «الباربـاري،Barbari » وكان للأمازيغيين عجمهـم أيضا، هـم» إكَناون» وقد لزمت هذه التسـمية بعض شـعوب أفريقيـة الغربيـة، فيما تفرع عنها من أسـماء البلدان، كغينيا وغانا، اللتين كان ينسب إليها في المغرب بـ » كَناوي، عبد كَنـاوي» والغين في غانا وفي غينيـا مقلوبة عن الكاف المعقودة. ولا تزال فئة من سـكان المغرب الذين هم من أصل زنجيّ يسـمون «كَناوا». أما اللفظة الأمازيغية الأصلية فهي »أكناو« التي تجمع على» إكَناون « ومعناهـا الأعجم، الأبكم، الأخرس... كان اليونان اذن يطلقـون اسـم Barbari علـى غيرهـم من الشـعوب، بدءا باللاتينيين. ولما أخذه عنهم الرومان صاروا يسـمون به كل شعب خارج عن المجال الحضـاري اليوناني اللاتيني (Dictionnaire latin, 207). فمن المحقق إذن أن الأمازيغيين كانوا »بارباري، «Barbari في نظـر الرومان، وكانوا ينعتون بذلك النعت، لاسـيما أنهم قاوموا روما مقاومة شـديدة، حربيـا (Rome et les Berbères) وثقافيا

(la Résistance Africaine) ولاسـيما أن جـل قبائلهـم ظلـت خـارج المناطق الشـمالية الخاضعـة للنفوذ الرومانـي. فلزمهم طيلـة عهد الرومان. وكان مـن الطبيعي أن يلزمهم طيلة عهد السـيطرة البيزانتيـة على مدن السـاحل المتوسـطي الجنوبي، بمـا أن» الـروم «اي البيزانتيين من ورثـة الأمبراطوريـة الرومانية. وعند الفتح الاسـلامي، أخذ العرب عن» الـروم « كلمة» بارباري، «Barbari وجعلوهـا» بربـر». ولقـد ظـل الافـرنج، اي الأوروبيون يسـمون أفريقيـة الشـمالية» بارباريـا،Barbarie, Barbaria ، أو الدول الباربارية،«Etats Barbaresques ، إلى أوائل القرن التاسـع عشـر الميـلادي (Dictionnaire Robert). ولمـا احتكـوا بأهالـي المغرب والجزائر الناطقين بالعربية العامية، سـمعوا منهم اسم »لبرابر « منطوقا براءين مرقّقتين ونقلوه إلى لغاتهم في شكل Berbers أو Berbères .

وما سوى هذا من التفسيرات التي ذهب إليها بعض المؤرخين العرب متكلّف ليس له ما يثبته بالاسـتدلال والمنطق. إن كل ما روي من الأشـعار العربية في موضوع نسـب» البربر « وإلحاقهم بقبائل العرب، من مضرية وقحطانية، لم يكن مبنيا على معرفة مضبوطة، وإنما كان صادرا عن رغبات سياسية كانت تراود نفوس العـرب و«البربر « معـا، والدليل على ذلك أن شـعراء عربا آخرين حاولـوا أن ينسـبوا إلى » العروبة « شـعوبا أخرى غيـر» البربر « فقالوا في الأكراد مثلا (لسان العرب، لابن منظور، مادة: كرد) :

لعمرك ما كرد من أبناء فارس *** ولكنه كرد بن عمرو بن عامر

وعلى أي حال لقد تجاهل الأمازيغيون اسم» البربر « في لغتهم طوال العصور، واحتفظوا باسمهم الأصلي » إمازيغن « ولم يتقبل منهم اسم» شلوح « الذي سموا به في المغرب ـ وربما لأن بعض قبائلهم كانت تقطع الطرقات على المسافرين ـ إلا سكان غربيّ الأطلس الكبير وسوس، يسمون أنفسهم » إشلحيين«، مع الإفراد على » أشلحي «، لكن لوحظ عندهم في العقدين الأخيرين أنهم يفضلون اسم » إمازيغن «. ومما يجب ذكره أن لفظة » أرومي « أي الرومي أو الافرنجي في اللغة الأمازيغية محمَّلة في أصل مدلولها بمعنى القساوة وانعدام الرأفة، توازي في ذلك كلمة »بارباري، «Barbari الرومية. ولهذا التوازي امتداد فيما تسمى به ثمرة الصبار الشائكة القشرة المعروفة عند المغاربة بـ » كرموص النصارى « أي » تين الأفرنج « وعند الفرنسيين « Figue de Barbarie» أي تين بلاد » البربر «. وقد أخذ المشارقة اليوم لفظة » بربر « barbare عن الأوربيين مباشرة بما أشربت من معان. فقالوا » أعمال الصهاينة البربرية « وما إلى ذلك، وسموا ثمرة الصبار بـ » تين البربر « (Agricultural terminology) .

ولقد كانت، من جهة الأمازيغيين في القديم، ردود فعل على ما سموا به بعد الفتح الاسلامي من التسميات. فلقبوا العرب بـ » إكَزّام « المعاول، و«إكشوضن « الحطب، و» إزاكارن « الشّرط، جمع شريط، و«إخامخامن «الصُّحُلُ. وكان الأمازيغيّ يُوَرّي عن إشعار القوم أن جليسهم العربيّ يفهم » البربرية «بقوله » هات يتشا يوجضم «!لقد أكل الهندباء!

أصل إمازيغن

كتب الكثير في هذا الباب، وملخص ما كُتب أن المؤرخين العرب كادوا يجزمون، في العصر الوسيط، أن» البربر «من أصل يماني، أي من » العرب العاربة «الذين لم يكن لهم قط عهد بالعجمة، وعلى نهجهم سار المنظرون للاستعمار الفرنسي الاستيطاني في القرن الماضي وأوائل هذا القرن، فأخذوا يتمحلون البراهين على أن» البربر «أوربيو المنبت، خاصة الشقر والبيض منهم. ومن الواضح أن الحافز في الادعاءين كليهما سياسي، سواء أكان صادرا عن حسن نية أم كان إرادة تبرير للاستيطان. ومع تراجع الاستعمار الاوربي عن أفريقية الشمالية، أخذت هذه المسألة العلمية تفرض على الباحثين كل تحفظ لازم، لاسيما تجاه المصادر المكتوبة ما لم تدعمها معطيات أخرى أكثر ضمانا للموضوعية. وقد عُمل بجد، خلال الأربعين سنة الاخيرة، على استغلال الامكانيات الاركيولوجية والانثروبولوجية واللسنية في البحث عن أصل الأمازيغيين، أو عن اصول المغاربة على الأصح. والنتائج الأولى التي أفضت إليها البحوث أن سكان أفريقية الشمالية الحاليين، في جملتهم لهم صلة وثيقة بالانسان الذي استقر بهذه الديار منذ ما قبل التاريخ، أي منذ ما قُدر ب 9.000 سنة، من جهة، وأنّ المد البشري في هذه المنطقة،

كان دائما يتجه وجهة الغرب انطلاقا من الشرق، من جهة أخرى، (Berbères, Camps 44,).

وبناء على هـذا، يمكن القول إن من العبث أن يبحث لـ» البربر «عن مواطن أصلية غير التي نشأوا فيها منذ ما يقرب من مائة قرن، ومن يتكلف ذلك البحث يستوجب على نفسه أن يطبقه فـي التماس» مواطـن أصلية «للصينيين، مثـلا، أو لهنود الهند والسـند، أو لقدمـاء المصريـين، أو لليمانيين أنفسـهم وللعرب كافة، ليعلم من أين جاؤوا إلى جزيرة العرب. وكل ما يمكن تأكيده اليوم، فيما يرجع للقرابة القديمة المحتملة بين إمازيغن واليمانيين، يكمن في قرائن ثلاث :

أ- عـدد لابـأس به مـن أسـماء الأماكـن التي توجـد على الطريـق البري الواصـل بين المغرب الكبير وبـين اليمن عبر القارة الافريقية، لها صيـغ أمازيغية واضحـة ولبعضها مدلولات في اللغة «البربرية». منها في صعيد مصر: أبنو، وأسيوط، وأخميم، وتيما، وتالا، وأصوان (أسـوان)، وتوشكا... وفي شمالي السودان : تاراكَما، وأتبارا، وتيمرايين... وفي إيريتريا : أكسوم، وأسمارا، وأكَولا، وأكَوردات أو أكَورضاد... لكن، لا يوجد في اليمن نفسها، حسب ما هو مرسوم في الخرائط العادية، أسماء أماكن من هذا القبيل، إلا اسم جزيرة «أنتوفاش». أيرجع تسلسل الاسماء السالفة الذكر على الطريق القارية الرابطة بين افريقية الشمالية وبين اليمن الـى عهد هجرة قديمـة تركت آثارها في الاصقـاع التي عبرتها؟ أم يرجع الـى قرابة بين اللغـة الامازيغية وبـين المصرية القديمة واللغات الكوشية ؟

ب- لقد عثرت شـخصيا على عدد من الالفاظ العربية التي قال بشـأنها صاحب» لسـان العرب« إنها» حِمْرِيـة «أو» يمانية»؛ وهي ألفـاظ لها وجود فـي الامازيغيـة، إما بمدلولهـا »الحِمْيَري «وإما بمدلـول معاكس، وكأنها انقلبت الـى أضدادها. لكن عدد هذه الألفاظ قليل لا يسمح بجزم في الموضوع، الا اذا تمت دراسة مقارنـة ميدانيـة بين اللهجـات الأمازيغية واللهجـات اليمانية الحالية من حيث معطياتها المعجمية والصرفية والفونولوجية.

ج- بـين حـروف » تيفينـاغ«. القديمـة منهـا والتواركَية، وبين حـروف الحميريين، شـبه ملحوظ في الاشـكال، لكنها لا تتقابل فـي تأديـة الأصـوات، إلا في حالتـين اثنتين بتجاوز فـي التدقيق (مراسـلة شـخصية بيني وبين الباحث الفرنسـي «كريستيان روبـان، «Christian Robin، محرر الفصل الخاص بحضارة جنوبيّ الجزيرة قبل الاسلام في «l'Arabie du Sud»).

ولعـل طريق البحث في هذا الموضوع سـيختصر في العقود الاولـى مـن القرن المقبـل، أو قبلها بقليـل، لأن وسـائل المقارنة الانثروبولوجيـة بـين الشـعوب أصبحـت جـد دقيقـة بفضـل الاكتشـافات الاخيرة التي حققها العالمـان» جان دوصي، «Jean Dausset و«جـان بيرنار، «Jean Bernard المتخصصان في فحص الكريّات الحمراء على مسـتوى أشـكال سـطوحها. ولقد تمكن هـذان العالمان من اقتفاء آثار شـعوب هاجرت مواطنها الاصلية منذ خمسـة عشر ألف سنة (Le sang et l'histoire)

الأمازيغيون في
العصر التاريخي القديم
وما قبل الاسلام.

1_ اســـتمرارية تعرض المواطـــن الأمازيغية للهجمات الخارجية :

لا يعتقـد أن مـن بـين الامم أمة لـم تتعرض قـط للهجمات الخارجيـة. ولا يعتقـد أن من أصقـاع المعمور ما لم تتـوال عليه دفعات الاسـتعمار البشـري إلا ما كان منها قاحـلا لا خير فيه، أوغير قابل للاستيطان من جراء مناخه واختفاء تربته تحت الجليد. لكـن تتابع الهجمات الخارجية على مواطـن الأمازيغيين في جل حقب التاريخ قد لفتت انتباه المؤرخين. ولعل سـبب تعرض »البربر «لهـا راجع لعاملـين متفاعلـين. أولهما أنه نشـأ على الضفة الشـمالية الشـرقية للبحر المتوسـط حضارات ماديـة ازدهرت بفضل عوامل متعددة، فبادرت الشـعوب التي اسـتفادت منها إلى الانتشـار خارج معاقلها مـزودة بعدتها وعتادهـا وبتجاربها. وثانيهمـا أن الامازيغيـين كانـوا، إذ أخـذت تلـك الشـعوب في الانتشـار، على حال من الضعف المادي والاجتماعي والسياسي،

له ما يبرره كما سنوضح من بعد؛ فاحتكرت تلك الشعوب فرص المبـادرة منذ البداية، وظل الامازيغيون في موقف المدافع على مر القرون.

ومن الطريـف ان يبدأ اتصال الامازيغيـين القدماء بالاجانب الأول الذيـن اسـتأذنوهم فـي مسـاكنتهم، بابتسـامة مغرية ترضـت بها أميـرة فينيقية زعيمـا أو ملكا» بربريا«، حسـب ما نقلته إلينا الأسـطورة في بعض تفاصيلهـا (,Trois mille ans 30). كان ذلـك الزعيـم الملـك هو»ياربـاس، «Iarbas حسـب ما رواه المـؤرخ اللاتيني» يوسـتينوس، Iustinus «، فـي القرن الثاني الميـلادي، نقلا عـن غيـره (l'Afrique du Nord, 68). وكانت تلك الأميرة هي» أليسـا، Elissa «الشـهيرة، المعروفة باسم» ديدون، Didon «أيضا. فإن كانت هذه الأسـطورة تدل على شـيء، فإنما تـدل على أن الأجانـب الأول الذين قدمـوا أرض» البربر «قدموها مسـالمين مسـتضيفين، وعلـى أن مضيفيهم كانـوا في حاجة إلى معونتهم. وبالفعل كان الأمازيغيون في حاجة إلى وسـطاء بينهم وبين غيرهم في التجارة وشـؤون البحـر. وكانوا في حاجة اليهم في مـا يصنع من الادوات والآنية والملابـس وغير ذلك. ومما لا شـك فيه أن الأمازيغيين عرفوا فينيقيين آخرين قبل »إليسا« ومرافقيها، وأنهم تعاملوا معهم في المبادلات. وما قدوم» ديدون «وتأسـيس قرطاجة حوالي 814 ق.م إلا تكريس لعلاقات سابقة بـين مجتمع رعوي انتجاعي وبين وفود مـن التجار والصناع. لكن تأسـيس قرطاجة وغيرها من المراكـز التجارية الفينيقية الأخرى على ساحلي افريقية الشمالية ستكون له مضاعفات لم يكن

الأمازيغيون يريدونها. ولم يتصرف القرطاجيون التصرف الكفيل بتلافي وقوعها، أو باحتواء مفعولها. لقد ظلت العلاقات طيبة بين القرطاجيين و«مضيفيهم «ما دام دورهم ينحصر في التبادل والمتاجرة. أي طوال ثلاثة قرون ونيف. ولما أخذت أنظارهم تتجه إلى الاراضي الداخلية، وصاروا يستعمرون المنطقة المحيطة بمدينتهم، تغير الوضع شيئا فشيئا. ابتداء من أواخر القرن الخامس قبل الميلاد. وليس من المجازفة أن يقال إن التعاون الأمازيغي القرطاجي، لو بلغ مداه في المجالين السياسي والحربي، كما بلغه في المجالين التجاري والثقافي، لغير مجرى التاريخ قليلا أو كثيرا.

لكن واقع الأمر هو أن التعايش السلمي انقضى عهده بسبب رغبة قرطاجة في التوسع خارج مجالها البحري الذي منحت إياه عن رضى. فنشبت بينها وبين الأمازيغيين تحرشات ابتداء من مطلع القرن الرابع قبل الميلاد. فحاصروها حصارا شديدا سنة 396 ق.م. واستغل الصقليون كل فرصة لاغراء أحد الطرفين بالآخر (les Berbèrs, 44,45,46. نقلا عن Diôdoris وPolubios وغيرهما). وتطورت التحرشات الى عداء وتباغض. فثار على قرطاجة جيشها، المؤلف في أغلبيته من» البربر«، بقيادة » ماطوس، Mathos «سنة 241 ق.م، ولم تعد المياه الى مجاريها الا بعد ثلاث سنوات من التناحر. سيطرت إثرها قرطاجة على الموقف. فشارك الامازيغيون في الحرب ضد روما ـــ الحرب البونية الثانية ــ وحقق حنّبعل، بفضل قوتهم الحربية، انتصاراته الخالدة، في شبه الجزيرة الايطالية. فلم يخف على الرومان دور»البربر «في تلك الانتصارات كما يشهد على ذلك

قول» تيتوس ليفيوس، «Titus Livius: »إن سيوف النوميديين هي التي فصلت الفصل النهائي في معركة قنّاية .» Cannae (Les Berbers، في صدر الكتاب). لكن الأحقاد بين الامازيغيين والقرطاجيين كانت قد تسربت الى أعماق النفوس: فاستغلها الرومان بحنكتهم المألوفة ووجدوا طريقهم إلى الاحتلال التدريجي لمناطق افريقية الشمالية المحاذية للساحل المتوسطي وما اتصل بها من الاراضي الداخلية، كما هو معلوم.

وهنا تجدر الاشارة الى أن الجزء الشرقي من الساحل لم يسلم من التدخل الأجنبي. ففي القرن الخامس قبل الميلاد، بينما كانت قرطاجة تنشر نفوذها في غربي الحوض المتوسطي، كان اليونانيون يتحيّفون الاراضي الأمازيغية قطعة قطعة في الضفة الجنوبية المتقابلة مع بلادهم. فقاومتهم القبائل الامازيغية الليبية» ناسامونيس «بقيادة ملكها ــ أو زعيمها ــ «أدريكان، .«Adrican لكنهم مع ذلك، تمكنوا من احتلال مواقع بحرية، في ما هو معروف الآن بـ» برقة « وأسسوا مجموعة من الموانئ أسموها» المدن الخمس، Pentapolis « فازدهرت حضارتهم فيها ازدهارا ملحوظا، لا سيما بعدما عزز الاسكندر المقدوني، بفتوحاته، مكانة اليونان عامة، في شرقي حوض المتوسط. ومن اسماء» المدن الخمس «علق بذاكرة التاريخ، بوجه خاص، اسم »قورينا، Cyrenae «. ثم اسم» بيرينيشي، Berenice «التي كانت مشيدة على موقع» بنغازي « الحالية. وفي» قورينا «ولد الشاعر اليوناني المشهور» كاليماخوس، «Kallimakhos الذي تغنى في احدى قصائده بجمال» الليبيات الشقراوات«. ولعل تعامل أولئك

اليونانيين مع القبائل الأمازيغية المحيطة بـ «المدن الخمس «كانت تجارية قبل كل شيء. لكن، على ما يظهر، قد تم بين العنصرين، الأمازيغي واليوناني نوع من التمازج الثقافي الديني، بما أن عبادة الاله الليبي »أمونAmmon «، الذي كان معبده الأكبر بواحة» سيوا«، تسربت، على طريق» أرض قورينا Cyrenaica «إلى القارة الأوربية، وانتشرت هناك، حتى في الأوساط الراقية (Histoire générale ... I, 347). وذاع صيت» آمون «الليبي إلى درجة أن مستشاري الاسكندر المقدوني أشاروا عليه بان يفتح» سيوا « كي يستتب له الأمر في مصر، فعمل بمشورتهم، وقطع بأثقاله مسافة ستمائة كيلومتر عبر الصحراء، ليعوج مدة ما بتلك الواحة النائية الصغيرة. وقد بلغت أصداء تلك الزيارة جزيرة العرب نفسها، كما يشهد بذلك قول الشاعر أمية بن أبي الصلت (لسان العرب، مادة : ثأط) :

بلغ المشارق والمغارب يبتغي ***** أسباب أمر من حكيم مرشد
فأتى مغيب الشمس عند مآبها ***** في عين ذي خلب وثأط حرمد

وما هو قمين بالذكر أن سكان واحة» سيوا «كانوا حتى الاربعينات أو الخمسينات من هذا القرن يتكلمون اللغة الأمازيغية. لقد خصص» المستمزغ «الفرنسي» لاووست،«Laoust كتابا للتعريف بلهجتهم، ولا يستبعد أن يوجد من بينهم، بكثرة أو بقلة، من لا يزال يتكلمها حتى الآن.

وبعد هذا الاستطراد، الذي كان ضروريا، نعود إلى صلب الموضوع. لقد استرعى انتباه المؤرخين أن» البربر «كانوا باستمرار يتحالفون مع كل مستعمر» طارىء «رغبة في التخلص من

المستعمر» المقيم«. حالفوا أو حالف بعضهم روما للتخلص من قرطاجة، ثم حالفوا الوندال للتخلص من روما (Les Berbers, 77. نقلا عن القديس أغوستينوس، وعن جيبّون Gibbon)، وشاركوهم في تخريب» المدينة الخالدة «وتخريب مدن أخرى إيطالية، وقاسموهم الأسلاب (les Berbers, 85. نقلا عن فيكتوريس فيتنسيس، Victoris Vitensis، وهو Victor de Vite المولود بقرطاجة سنة 455 م). ثم لم يلبثوا أن عادوهم وحاربوهم، انطلاقا من جبال »أوراس« بوجه خاص، وكبدوهم» أشنع هزيمة تكبدوها في تاريخهم «حسب ما رواه » بروكوبيوس، «Procopios (les Berbers, 87). ولما هاجم البيزانتيون مواقع الوندال في افريقية الشمالية، وهي مواقع غير ذات أهمية (les Berbers)، لزم الامازيغيون الحياد أول الأمر إلى أن انهزم أعداؤهم »القدماء«. فواجهوا إذّاك أعداءهم» الجدد«. ونظرا لأهمية المواجهة الطويلة الشاقة بينهم وبين الرومان، ثم بينهم وبين البيزانتيين، ورثة الرومان، سنحلل المسألة بشيء من التفصيل فيما بعد، لأن ذلك يقتضي معرفة ما لأوضاع الأمازيغيين السياسية قبل أن يدهم الاستعمار الروماني بعض أراضيهم. أما الوندال فلم تمكث جحافلهم في الشمال الافريقي مدة طويلة، ولم تتأثر البلاد بمجيئهم تأثرا حضاريا يذكر.

2_ سلالات أمازيغية تحكم مصر القديمة قرونا :

لم يتأت للأمازيغيين، قبل إسلامهم، أن يفتحوا اراضي أجنبية ويستعمروها، كما تأتى ذلك لغيرهم من الامم، وللرومان خاصة. لكن سلالات منهم وجدت مع ذلك سبيلا غير مباشر

للاستيلاء على الملك في أعظم مملكة عرفها التاريخ، وأطولها عمرا، ألا وهي مصر الفرعونية، فتعاقب على أراضي الكنانة فراعنة» ليبيون « لعدة قرون، ابتداء من القرن العاشر قبل الميلاد. تم ذلك بعد تسلسل أحداث شهدتها مصر فيما بين سنة 1227 وسنة 935 ق.م.

لما أوقف الفرعون» راعامسيس «الثالث الهجمات الخارجية التي تعرضت لها مصر، في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، لم يتمكن من ايقاف الزحف الأمازيغي (الليبي) إيقافا كاملا. فاستوطنت قبائل»بربرية «وادي النيل، وصارت تمد الجيوش الفرعونية بالجنود. وفي أواخر الالف الثاني قبل الميلاد كان عدد من أولائك» المرتزقة «قد تبوؤوا مناصب عمال في الاقاليم، وكانت الأوضاع السياسية متردية. فلم يوشك القرن الأول من الألف الاول أن ينتهي حتى استولى الزعيم الليبي» شيشونق.«Chechonq (ولعله في الواقع شيشونغ) على العرش المصري ودشن عهد الأسرة الفرعونية الثانية والعشرين، سنة 935 ق.م، واتخذ» بوباستيس، «Bubastis عاصمة له. وعلى يده عادت الاوضاع في وادي النيل الى نوع من الاستقرار، فرد لمصر نفوذها السياسي في الشام بالاستيلاء على» أوكاريت.Ugarit «، وجبيل Byblos . و«أورشليم«، بيت المقدس الحالي. وقد ظل الحكم متوارثا بين الأسر الأمازيغية الليبية الى حوالي 715 ق.م، وكان آخر فرعون أمازيغي» صريح «ساد مصر هو»تافناخت.«Tafnakht من الأسرة الرابعة والعشرين. فخلفه فراعنة» هجناء «(أمازيغيون إثيوبيون) عندما دُشّن عهد الأسرة

الخامسة والعشرين (Histoire du développement ... II, 26).

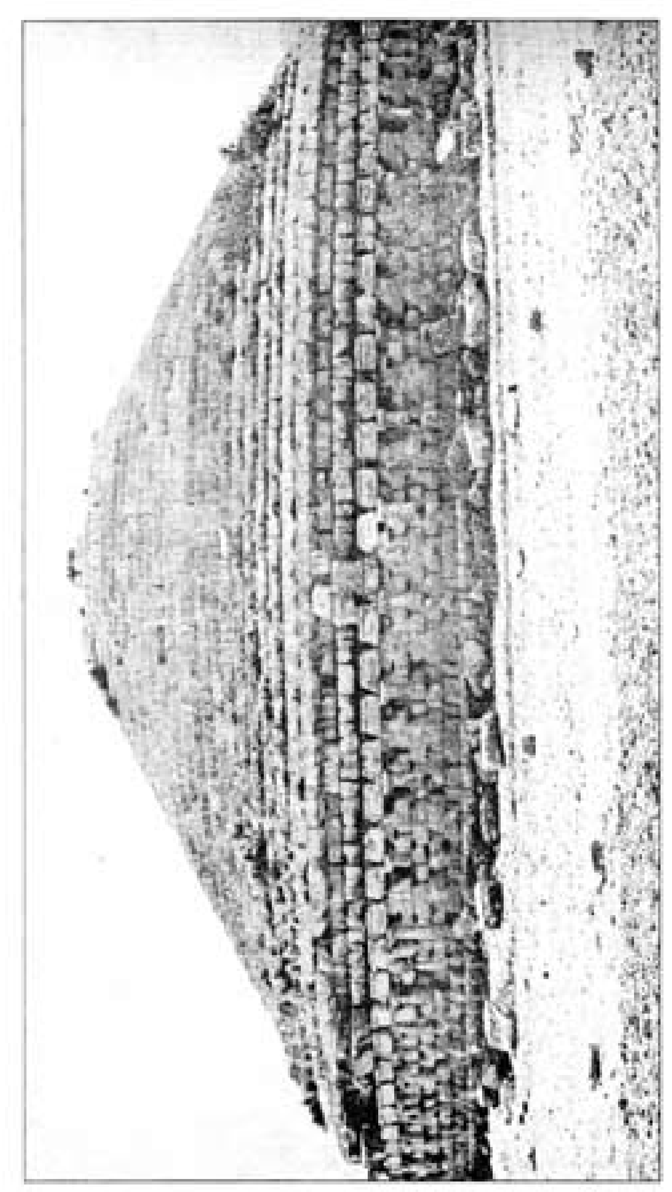
3 - ممالك أمازيغية قديمة تحاول جمع الشمل :

تخبرنا المصادر المصرية بأنه كان للأمازيغيين الليبيين ملوك، في أواخر الالف الثاني قبل الميلاد. وتشير بعض المؤلفات اللاتينية الى أن كلا من الملكين الأمازيغيين يارباس Iarbas ويوفاسIopas (أو: يوفان Iopan) رغب في الزواج بالأميرة الفينيقية أليسا، لكن لابد من التساؤل بشأن ذلك : أكان ملوك المصادر المصرية ملوكا حقا، أم كانوا زعماء قبائل، يتكلمون باسم قبائلهم؟ ثم، ما هو الجانب الاسطوري وما هو الجانب التاريخي في ما روي بخصوص خطبة »يارباس «و» يوفان «لأليسا؟ وإنما من المحقق أنه كان بشرقي ليبيا، في غضون القرن الخامس ق.م، ملك يسمى» أدريكان، Adrican «، بشهادة من هيرودوتوس Herodotos. ومن المحقق أيضا أنه كان لبعض أراضي نوميديا ملوك، ولبعض أراضي موريتانيا ملوك، ابتداء من القرن الرابع الميلادي ق.م. ويعتقد جل المؤرخين أن الملك» أيليماس، Ailimas «هو الذي أسس دولة »المازيليين «التي ينتمي اليها» ماسينيزا«. روى عنه» ديودوروس «أنه قتل في معركة خاضها ضد طاغية» سيراقوسا«.» أكَاثوكليس «حوالي سنة 310 ق.م (l'Afrique du Nord... 68,71).

أما في القرن الثالث ق.م، فقد أخذت معالم الممالك الأمازيغية تتضح، بحيث يمكن المؤرخين أن يدرسوها حتى في بعض مظاهر سيادتها. ومن ملوكها الأول الذين حاولوا بجد

أن يجمعوا شمل الأمازيغيين» سيفاكس، أو سيفاقس، أو سيفاغس، Syphax « و»ماسينيزا، «Masinissa و»باكَا، Baga «. عاش هؤلاء الملوك الثلاثة في زمن واحد، في أواخر القرن الثالث ق.م. حالف أولهم قرطاجة وحاربها ثانيهم بسند من ثالثهم. كان سيفاكس ملكا على قبائل» ماسايسولي «التي لم يحدد التاريخ مواطنها بالضبط، وكان» ماسينيزا «ملكا على قبائل »مازيلا «(أو» ماسيلا«) النوميدية، وكان» باكَا «ملكا على جزء من اراضي موريتانيا يمتد من المحيط غربا الى نهر» مولوتشا « شرقا، ومن البحر المتوسط شمالا الى سفوح الاطلس جنوبا فيما رُجِّح. لم يكن للملك »سيفاكس« عقب في الملك، لأن» ماسينيزا «هو الذي استولى على مناطق نفوذه بعد أن هزمه وأسره. أما »باكَا «الموريتاني فقد ورثت عرشه أسرة» بوكّوس «التي لا يدرى أهي من سلالته أم من غير سلالته، لأن الحقبة التي تفصل عهد» باكَا «عن عهد »بوكّوس «الأول تناهز القرن، ولا يعرف شيء عما حدث فيها.

فبينما كانت كل مملكة من هذه الممالك الثلاث تحاول جمع الشمل في المنطقة الخاضعة لنفوذها، كانت الحروب تتوالى بين روما وقرطاجة. فنتج من ذلك أن كلا الطرفين المتناحرين صار يغري الأمازيغيين بالتحالف معه، ويستغل التنافس الذي يطبع علاقات الملوك بعضهم ببعض. وفي أثناء الحرب البونية الثانية استطاعت روما، بفضل معرفتها لمعطيات المجال السياسي» الافريقي«، أن تكسب صداقة أشد الملوك حنقا على قرطاجة، وهو» ماسينيزا«، وأن تتحالف معه. فكانت تلك المحالفة هي



نموذج أول من الأضرحة الأمازيغية التي يرجع عهدها إلى ماقبل الميلاد وهو ضريح "ميدراسن" بالجزائر

الثلمة الأولى التي تسربت منها الهيمنة السياسية الرومانية، شيئا فشيئا، إلى مراكز الحكم في أقطار المغرب كلها. ذلك أن روما اتخدت جميع أساليب الترغيب والترهيب منهجية لها لإغراء الملوك الأمازيغيين بعضهم ببعض، في مرحلة أولى، ثم أزالت القناع عن وجهها في مرحلة ثانية وحاربت كل من امتنع أن يكون عميلا لها، واستمرت على تلك الخطة ما يقرب من قرنين، موسعة نطاق سيطرتها في اتجاه الغرب الى أن قضت على الممالك كلها، ولم تُبق، بصورة شكلية، إلا على عرش موريتانيا، فأجلست عليه الأمير الأمازيغي الشاب يوبا بن يوبا الذي كانت قد أسرته، وهو صبي، بعد التخلص من أبيه. فظل يوبا لها عميلا الى أن توفي. فسار ابنه بطوليمايوس على نهجه، الى أن استدرجه ابن خالته، الأمبراطور الروماني» كاليكولا، Caligula «الى حضور احتفالات رسمية بمدينة» ليون« الغالية، حيث أمر باغتياله، سنة 40 م. وبموته انقرضت الممالك الامازيغية القديمة. جدول بتتابع السلالات الملكية الأمازيغية القديمة، في الزمان، وبمطاردة الرومان لها في المكان

4 - نظرة عن أعمال الملوك القدماء البارزين.

أ- الملك سيفاكس المسايسولي، المتوفى سنة 203 ق.م.

لم يستطع المؤرخون ضبط حدود مملكته، فرجحوا أنها كانت لملكه عاصمة شرقية، هي» قيرطا، أو شيرتا،«Cirta وعاصمة غربية، حيث كان يقيم، هي» سيكَا، «Siga . لعل» سيفاكس «لم يكن في أول أمره سوى زعيم قبيلة تغلبت على قبائل أخرى، ثم

حمل التاج وضرب العملة باسمه ونظم الجيش. واستعان بابنه » أورمينا.Vermina «في تسيير الشؤون الحربية. ومع أنه تأثر الى حد بتقاليد اليونان السياسية، كان يعتمد في ممارسة سلطته على مساعدة زعماء القبائل. كانت له علاقات ديبلوماسية مع كل من قرطاجة وروما. كانت لغة الحياة اليومية والتخاطب في مملكته هي الأمازيغية، وكانت لغة المكتوبات الرسمية هي الفينيقية، وكانت لغة الثقافة هي اليونانية. ولعل اسمه هو المقصود فيما كتبه ابن خلدون عن أصل» البربر «إذ قال إن جدهم» سفك«. يعزز هذا الفرض أن» بلوتارخوس،Plutarkhos «زعم شيئا من هذا القبيل (l'Afrique du Nord..., 85).

في خضم الحرب البونية الثانية كانت كل من روما وقرطاجة ترضى» سيفاكس «وتحاول أن تجره إلى جانبها. فسعى للاصلاح بين الطرفين ولم يفلح، بسبب تعنت روما. فاختار جانب قرطاجة، بعد زواجه بإحدى بنات أعيانها،» صوفونيسبا«، علما منه أن انتصار روما لن يكون له على» أفريقية «الا عواقب وخيمة. لكن الرومان اتجهوا الى خصمه ومنافسه» المازيلي « الملك الشاب الطموح» ماسينيزا «وحالفوه. فحارب »سيفاكس « وهزمه وأسره وسلمه لحلفائه، وورث مملكته. ولعل الأمير»أورمينا.Vermina «عاش بعد أبيه بضع سنوات، كما يدل على ذلك العثور على عملة فضية تحمل اسمه.

ب - الملك» ماسينيزا «المازيلي (240 - 148 ق.م).

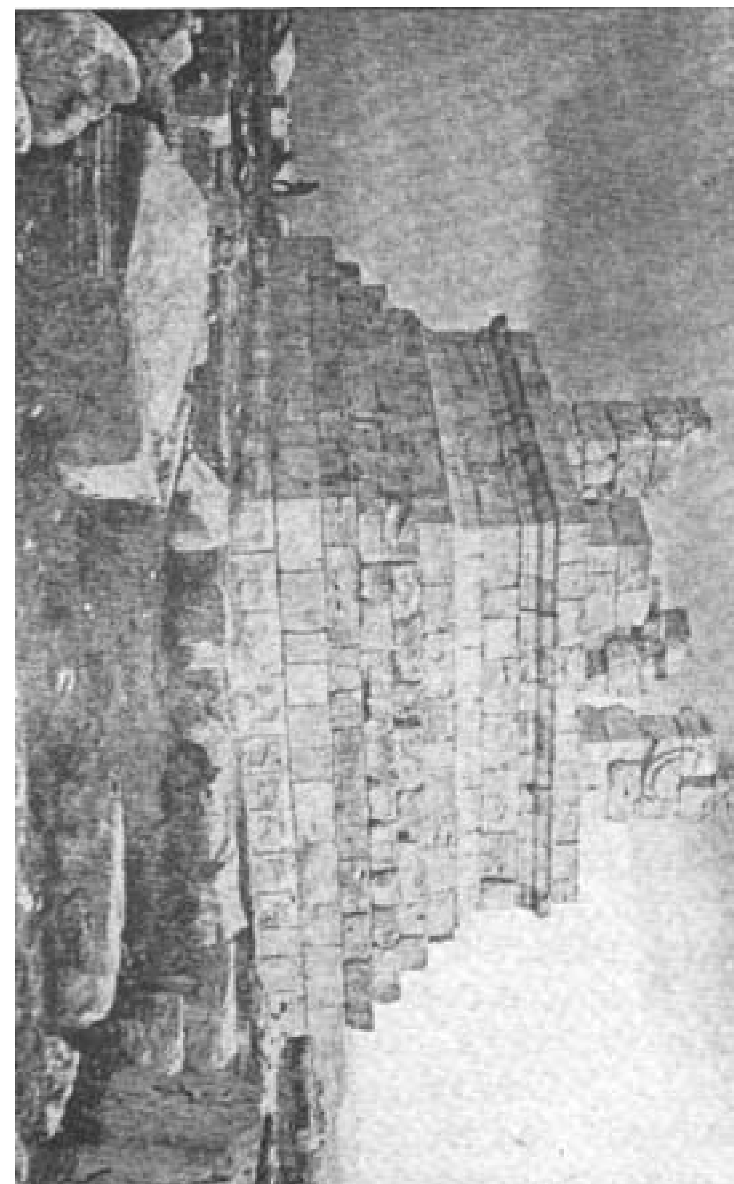
برزت شخصية هذا الملك أول ما برزت في كفاءته الحربية.

لقد استطاع أن يهزم» سيفاكس «الماسايسولي، ثم مكن الرومان من الانتصار على أمهر جنرال عرفه التاريخ القديم، ألا وهو »حَنعبل «القرطاجي، وذلك في معركة» زامًا «الشهيرة، سنة 202 ق.م. (la Carthage punique, 284,85, Gsell, III, 268,280...). لقد كان سبب بغضه لقرطاجة هو تمسكه بمبدإ» أفريقية للأفارقة! «. وما أثار حفيظته ضدها بشكل خاص، حسب ما روي، هو تزويج القرطاجيين «سيفاكس» مخطوبته «صوفونيسبا». والواقع أن جيرانه القرطاجيِّين كانوا متواطئين مع خصمه الماساسولي قصد القضاء على ملكه. فلم يجد بدا من محالفة الرومان، مع إضمار غايته القصوى في نفسه، وهي إنشاء مملكة أمازيغية موحدة مستقلة عن كل نفوذ أجنبي، لا سيما أن اتفاقية الصلح بين روما وقرطاجة (201 ق.م.) كانت تنص على أن من حقه أن يعمل من أجل استرجاع جميع الأراضي التي كانت بقبضة أجداده، في غير تحديد لتلك الأراضي. وإن لم يوفق فيما بعد، فلسببين اثنين: أولهما أنه شاخ وهرم ومات قبل أن تنهزم قرطاجة انهزامها النهائي. وثانيهما أنه لم يهيء أبناءه لمواصلة عمله بعد وفاته، بل ارتكب خطأ سياسيا باعتماده على الرومان وتنصيبهم أوصياء على عرشه بعد وفاته. لا شك أن حقده» القديم «على قرطاجة هو الذي دفعه إلى ذلك، وأنه حينما أقدم على فعله ذلك كان خائر القوى، عقليا وبدنيا، يعيش مع ذكرياته أكثر مما يعيش مع الواقع، بما أنه توفي عن سن جاوزت التسعين. ولاشك أن الرومان كانوا على علم من نواياه، وأنهم راوغوه طيلة حياته حتى يظل وفيا لهم. وقد قدر المؤرخون

أنه لو لم يدركه الأجل قبل عزم روما على هدم قرطاجة، لبذل قصارى جهده لانقاذها من الخراب، كي تكون قاعدة لملكه. وذلك ما كان الرومان يخشونه (Gsell, III, 354). فقوَّضوا العاصمة البونية عن آخر مبانيها، وقسموا الملك بين أبناء» ماسينيزا «الثلاثة حتى يضعف شأنهم، وشرعوا في تطبيق خطتهم الرامية إلى الاحتلال المباشر وإلى الاستعمار الاستيطاني للمناطق» النافعة «في افريقية الشمالية.

أما فيما يرجع لتنظيم المملكة المازيلية، فقد كان»ماسينيزا «نموذجا من النماذج الأمازيغية القديمة كما وصفناها بصدد الحديث عن» سيفاكس «. الا أنَّ بقاءه على العرش مدة طويلة مايقرب من ستين سنة : من حوالي 205 الى 148ق.م مكنه من إنجاز أعمال لم يسبقه إليها أحد.

وسع» ماسينيزا «حدود مملكته، وجعلها تمتد من وادي» مولوتشا «غربا الى أراضي طرابلس الحالية شرقا، ولم يفلت من قبضته الا مملكة موريتانيا وما تبقى لقرطاجة من ممتلكات حول المدينة، بعد انهزامها سنة 202 ق.م. وقد اضطره هذا الاتساع في رقعة الملك الى التجوال المستمر عبر الاقاليم، على رأس جيوشه، والى مواصلة مساعيه الديبلوماسية من اجل إغراء روما بقرطاجة. كان يحمل لقب» أكَليد «(أي الملك باللغة الأمازيغية). وقد حاول هو أيضا ان ينظم مملكته على النمط الاغريقي المقدوني، فلبس التاج وحمل الصولجان، حسب ما يظهر في النقود التي ضربت له في عاصمته» قيرطا، أو شيرتا «(قسنطينة الحالية فيما رجحه المؤرخون حتى الآن).




بقايا نموذج ثان من الأضرحة الأمازيغية التي يرجع عهدها إلى ماقبل الميلاد، توجد بالجزائر، في المكان المسمى بالخروب.

كان يحافظ على تماسك أطراف مملكته بالوسائل السياسية التقليدية، اي المصاهرات والتعاهد مع زعماء القبائل، وإيقاظ المشاعر الدينية، وبالحرب عند الضرورة (l'Afrique du Nord, 109, 110.). فاستطاع بذلك أن يجبي الجبايات وأن يفرض على رعاياه نوعا من الخدمة العسكرية، على غرار ما هو مألوف عند جميع الأمم ذات البنى الاجتماعية القبلية. وشجع السكان على تعاطي الزراعة وعلى الاستقرار في السكن. وأنشأ اسطولا حربيا واسطولا تجاريا، وفتح أبواب مملكته للتجار اليونانيين. وفي عهده انتشرت الثقافة البونية بين الأمازيغيين أكثر من ذي قبل، مع معاداته لقرطاجة. وقدم العاصمة» قيرطا «عدد من الأدباء والفنانين اليونان، وجعلوا منها مدينة راقية في حياتها المادية والفكرية. كان الملك نفسه معجبا بالحضارة اليونانية، وكان يعمل بتقاليد الملوك اليونانيين. فأكل في الآنية الفضية والذهبية، واتخذ جوقة من الموسيقيين الاغريق. ولاشك أن التجار اليونانيين كانوا يروجون بضاعتهم بفضل ولوعه بكل ما هو يوناني. وقد نسب اليه بعض المؤرخين إحداث الأبجدية الأمازيغية القديمة (تيفيناغ)، مع انها أقدم بكثير مما توهموه.

ج- الملك» بوكّس الاول، Bocchus I « الموريتاني.

كانت مملكته أول الامر هي التي ورثها عن عهد»باكا «السالف الذكر. لكنه اغتنم فرصة انهزام»يوكَرتن «أمام الجيوش الرومانية واستولى على الجزء الغربي من مملكة المازيليين. وقد ألصق به التاريخ، كما كتبه المؤلفون اللاتينيّون، تهمة الغدر بصهره وحليفه يوكَرتن المازيلي، ولا سبيل الى التعقيب على

حكمهم، نظرا لقلة المصادر.

ولا يُدرى أين كانت عاصمة المملكة الموريتانية في عهد بوكّوس الاول، إلا أن بعض المؤرخين من المعاصرين يعتقدون أن ذلك الملك كان ينتقل بين عواصم متعددة، وأنه بدون شك استولى على مدينة» سيكَا،SIGA «المازيلية بعد انهزام» يوكَرتن «سنة 105 ق.م. وعلى كل حال، كانت مملكته تحتضن مجموعة من المراكز الحضرية، نخص منها بالذكر تينجي (طنجة)، وتامودا ووليلي (وليلي ما قبل العهد الروماني).

مارس الملك بوكوس الأول» سلطته المطلقة «في حدود قدراته العسكرية، وفي حدود التعامل مع العصبيات القبلية. كان له مجلس شورى من الأقارب والأصدقاء وبعض زعماء القبائل. وكان له ديوان للكتابة ولتدبير شؤون الجيش وكان عضده الأيمن في العمليات الحربية هو ابنه» أولوكس، Volux « . كانت تساعده في الاتصالات مع الخارج، ومع روما خاصة، هيئة سفراء من خمسة أعضاء. وكانت له دار للسكة. ومن أجل هذا كله كان بوكّوس الأول يعتبر نفسه أعظم ملك يوجد على وجه البسيطة، حسب ما رواه »سالوستيوس،Sallustius « الروماني. توفي فيما بين 80 و70 ق.م.، فخلفه ابنه بوكَود الأول. ثم انقسمت المملكة الى شطرين، حكم أحدهما بوكّوس الثاني، وحكم الآخر بوكَود الثاني. وفي سنة 38 ق.م. تخلّص بوكّوس من شريكه واستأثر بالملك. ولما توفي سنة 33 ق.م. لم يترك عقبا يخلفه، فبسطت روما نفوذها السياسي على موريتانيا، وولت عليها الأمير الأسير يوبا الثاني (25 ق.م.).

د - الملك» يوكَرتن، Yugurthin «المازيلي:

يوكَرتن ابن غير شرعي لماستانابعل بن ماسينيزا. ألحقه عمه الملك» ميكيوسا «بابنيه» أمفسال «و»أدربعل«. وجعله شريكا لهما في إرثه. وبعد وفاة» ميكيوسا «حارب» يوكَرتن «ابني عمه وتخلص منهما بالقتل على التوالي. وانفرد بالملك. ثم تصدى للرومان (112 ق.م). فظلت الحرب سجالا بينه وبينهم الى ان تخلى عنه حموه وحليفه الملك» بوكّوس «الاول الموريتاني. فأسره الرومان سنة 105 ق.م. وحملوه الى روما حيث سجنوه، ثم بطشوا به في سجنه. وقد سجل التاريخ عن هذا الملك انه كان ذا حنكة حربية نادرة، وانه كان من اشد المقاومين الذين عارضوا روما في سياستها العدوانية التوسعية، زمان صولتها على ضفتي البحر المتوسط. ولذا تسبب صموده في هزات اجتماعية عنيفة اجتاحت القواعد الايطالية كلها. وللملك» يوكَرتن «قولة مشهورة ندّد فيها بجشع الرومان عامة ونبلائهم خاصة. قال :» روما، ايتها المدينة المعروضة للبيع! أنت هالكة لو تجدين مشتريا! «وقد أرّخ لحربه مع الرومان الكاتب اللاتيني» سالوستيوس«.

هـ - الملك "يوبا الاول Yuba I"

في خضم الحرب الاهلية التي نشبت بين انصار القائدين الرومانيين »يوليوس قيصر «و» بومبيوس،Pompeius «. شعر الملك المازيلي يوبا الاول بان تمثال رأسي برونزي للملك يوبا الثاني عثر عليه في أنقاض وليلي. قيصر، في حالة انتصاره، سيتشدد في سياسته الافريقية، وذلك لانه كان له به سابق معرفة.

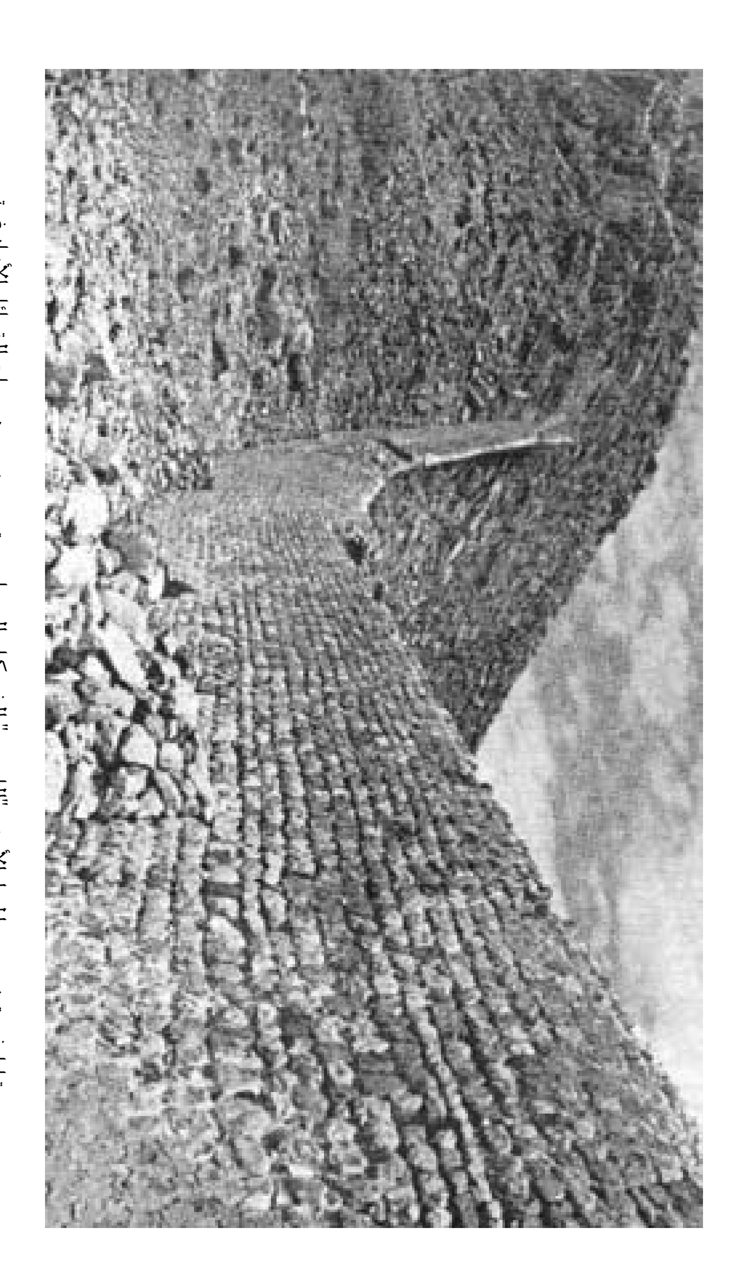
فحالف من اجل ذلك خصمه »بومبيوس«. بينما حالف الملكان المورتانيان بوكَود الثاني وبوكُّوس الثاني يوليوس قيصر. فلما كان النصر من حظ القيصريين، وجد يوبا نفسه معزولا عن جيشه وعن أسرته، فعزم على الانتحار بطريقة فريدة من نوعها، ذلك أنه دعا للمبارزة آخر رفيق وجده بجنبه، وهو قائد روماني، فتضاربا الى أن أردى كل منهما الآخر قتيلا (46 ق.م.).

ومما روي عن هذا الملك انه كان يراود فكرة توحيد الاراضي الامازيغية كلها تحت رايته، وانه كان شديد الغيرة على سيادة مملكته، بحيث انه كان، مثلا، يمنع على الضباط الرومانيين لبس البرنس الاحمر، لأن البرنس الاحمر كان هو شعار ملكه، لا يلبسه الا هو. كان ابنه وسَميُّه» يوبا «حين وفاته، طفلا صغيرا عمره بين خمس وسبع سنوات، أسره» يوليوس قيصر« وحمله الى روما، حيث نشأ في كنف بلاط الامبراطور»أوغوستوس «خلف قيصر، وهو الذي نصبه ملكا على موريتانيا.

5 - المقاومة الشعبية تنغص على الرومان والبيزانتيين مُقامهم في الربوع الامازيغية.

لما لم يوفق الملوك في ايقاف الزحف الاستعماري الروماني، لا من جراء ضعف حربي، ولكن من جراء ضعف في التعامل السياسي مع الاحداث راجع بدون شك الى المنافسات الداخلية، أخذت ظاهرة المقاومة الشعبية تبرز للوجود. وليس من المصادفة أن يحدث ذلك في العقد الرابع من القرن الاول قبل الميلاد، بل حدث في الوقت المناسب، اي بعدما اختفى عن الساحة »الافريقية

«كل ملك مستقل برأيه قليلا او كثيرا. أخذت اذاك القبائل تحارب الرومان بصورة تلقائية. ففي الحقبة الممتدة من سنة 34 الى سنة 19 ق.م. دارت رحى الحرب بين الطرفين خمس مرات (les Africains VII, 299). ثم توالت المعارك طوال النصف الاول من القرن الاول الميلادي. فخرج من صفوف المقاومين زعماء وقواد حرب خلّد التاريخ أسماءهم، أمثال »تاكفاريناس،Tacfarinas «المنتمي لقبيلة »موسالاميس،Mulalames « النوميدية، »أيديمون، «Aedemon ، احد عتقاء الملك» بطولاميوس« . ولم يكف روما مؤونة الحرب في المواطن الامازيغية كونها تولّي على عرش موريتانيا ملكا ربته في أحضانها. فمن المفارقات أن رعايا »يوبا «الثاني كانوا يقدسونه ويمقتونه في آن واحد (les Berbers, I, 49, 50). استمرت المقاومة طوال عهد الاحتلال، فشن الامازيغيون الغارات على المستعمر حيثما وجد، حتى في الأندلس (les Berbers, I, 56). واضطر الامبراطور» أدريانوس،Adrianus «. في أوائل القرن الثاني الميلادي (122 م.) الى زيارة مواقع المواجهة »ليحارب الموريتانيين، «pour combattre les Maures (les berbers, I, 55, 56). لكن روما لم تجد حلا لقضية المقاومة الامازيغية (Rome et les Berbères, 176). فاستمرت الاوضاع على ما كانت عليه (lesBerbers, I, 55,77,...). الى ان تعاون» البربر «مع الوندال وقوّضوا أركان الوجود الروماني في» افريقية الشمالية«. ثم خرّبوا روما نفسها. ومما يجدر التنبيه له هو ان الامبراطور الروماني» الافريقي «الاصل »كاراكالاّ، «Caracalla منح شعوب المستعمرات حق المواطنة الرومانية (212 م.). فلم يفد ذلك روما شيئا في



بقايا في تونس من الجدار الأمني "الليمس" الذي كان الرومان يحتمون به من هجمات القبائل الأمازيغية.

تعرضها للهجمات الامازيغية، والسبب هو ان القبائل الاشد بأسا لم تنضو تحت لواء الامبراطورية، بل لاذت بالجبال والصحاري خارج المنطقة المحصنة بقلاع »الليمس،«limes وجدرانه وخنادقه التي لا نزال نشهد بقايا بعضها على طوال الخط الممتد بين الرباط وتازة.

وبالتحصين أيضا ضمن البيزانتيون بقاء مهمشا لمواقعهم على الساحل المتوسطي الافريقي، لمدة قرن، دون أن يتمكنوا من التوغل في الاراضي الداخلية كما فعلوا في مصر والشام وآسيا الصغرى وإيطاليا. ضمنوا لها البقاء، دون ضمان الأمن. كانوا عادة لا ينتقلون من موقع الى موقع إلا على طريق البحر. ولما امتدت أنظار الروم الى بعض اراضي أفريقيا ونوميديا الشرقية، نشطت المقاومة الامازيغية نشاطا كبيرا بقيادة زعماء من قبائل» أوراس«، وقبائل» اللواتة «الليبية امثال »يابداس،Iabdas «و«أنتالاس،Antalas «و»كاركاسان، «Carcasan، فانهزم البيزانتيون عدة مرات، مع لجوئهم الى الغدر في غير مناسبة، وقتل منهم عدد من القواد العسكريين الكبار، فاضطروا مرارا الى أداء الفدى وتقديم الهدايا النفيسة. فبالاضافة الى المناوشات التي تحدث بين الطرفين باستمرار، قد دارت بينهما معارك طاحنة سنة 537 م، وسنة 543 م، وسنة 550 م، وسنة 563 م. فبرز في تلك المعارك قواد عسكريون أمازيغيون مهرة امثال» كزمول،Gazmul « الذي هزم بالتوالي ثلاثة جنرالات وقتلهم. وكان المقاومون كلما انهزموا لاذوا بالجبال أو الصحراء.

وكان الأسرى منهم يتحدون الجنود الروم ويسبُّون الامبراطور

وهم مصفّدون. فأدرك القواد البيزانتيون أن» البربر لا يمكن ان يهزمهم الا البربر! « فاستدرجوا قبائل أوراس الى التحالف معهم بقيادة» يابداس « و»إفيسداياس،Ifisdaias «. فقتل» أنتالاس«. وفي سنة 597 م خادع الروم» البربر «وغدروا بهم غدرا شنيعا، وهزموهم. ثم تواصلت المناوشات الى ان جاء الاسلام .(les Berbers, 92...108)

الأمازيغيون عند الفتح الاسلامي وبعد إسلامهم.

1 _ الامازيغيون والفتح الاسلامي:

بعدما يكون المرء قد اطلع على ردود الفعل التي كانت تصدر، قبل الاسلام، عن» البربر« كلما هوجموا في عقر دارهم، يكون قد أدرك الاسباب التي من أجلها لم تفتح» أفريقية الشمالية « كاملة للدين المحمدي إلا بعد لأي وعناء. كان من الطبيعي أن ينظر الأمازيغيون إلى الفاتحين الاول نظرة المغزوّ للغازي، لا سيما أن العرب كانوا يطرقون الأبواب مصحوبين بقضهم وقضيضهم (فتوح أفريقية والاندلس، 20)، مسلحين مستعدين للقتال ظاهري الرغبة في السبي والغَنم. فلا غرابة والحالة تلك، أن ينهض الأهالي لرد مايرونه هجوما استعماريا من النوع الذي كان لهم به سابق عهد. وبعد الاصطدامات الاولى تحركت ديناميكية الحرب، وقويت عند الجانبين كليهما إرادة الانتقام والاخد بالثأر؛ واستمر الوضع على هذه الحال قرنا كاملا، أي من عهد الغزوات الأولى التي كانت تنطلق من مصر (ابن الحكم) الى» معركة الأشراف «فمعركة »بكَدورة «(من حوالي 640/20

إلى 741/123) اللتين حسـمتا النـزاع. وخلصتا المغرب نهائيا من النفوذ السياسي المشرقي. ومن هذا المنظور ينبغي أن يفهم دور كل من كسيلة في مقاومته عقبة بن نافع. ودهيا (التي لقبها العرب بالكاهنة) في تصدِّيها لجيوش حسان بن النعمان. وميسرة. ثم عبد الحميد الزناتي في مواجهتهما للجيش الأموي العرمرم.

إن من يتتبع مراحل معركة بكَدورة مثلا. ويحلل أساليب الحرب فيها من جهة» البربر «يدرك أن هناك تجارب سابقة في ملاقاة كل وافد غير مسالم. كل من له علم بتاريخ قدماء الأمازيغيين يسلِّم بأن كسيلة ودهيا وميسرة وغيرهم من» الثوار «إنما واصلوا سلسلة من الانتفاضات الشعبية الدفاعية في نطاق الخطة التي دشنها »تاكفاريناس «و» أيديمون « و»كاركاسان «في غابر الازمان. وعمل بها. في تلقائية. كل من محمد بن عبد الكريم الخطابي وموحا وحمُّو الزياني (بتفخيم الزاي) وعسُّو وباسلام وغيرهم. في الثلث الأول من هذا القرن الميلادي العشرين الذي نحن فيه. ثم إن لعزم ملوك المغرب. أمثال المولى إسماعيل والحسن الأول ومحمد الخامس. على مناهضة الاستعمار بالحكمة والقوة معا. جذورا في التاريخ زُرعت بذُورها الأولى في عهد» ماسينيزا «و» يوكَرتن« و» يوبا «الأول. منذ ألفي سنة ونيِّف.

وما هو مثبت أيضا أن الأمازيغيين واجهوا الأطماع الخارجية بالصمود الثقافي كما واجهوها بالسلاح الحربي (la Résistance africaine). فرفعوا غير ما مرة راية العقيدة للتخلص من

الاستبداد الأجنبي؛ وخير شاهد على ذلك مواقفهم الدينية في ثلاث حقب من تاريخهم الطويل.

لما أخدت المسيحية تنتشر في الجزء الغربي من حوض البحر المتوسط. خلال الأقرن الثلاثة الاولى بعد الميلاد. بقي القياصرة الرومانيون على وثنيتهم. كانوا ينصّبون أنفسهم آلهة ويحرصون على أن يحتفل بهم. بصفتهم آلهة في جميع أنحاء الأمبراطورية. لكن» دينهم «ذاك لم يجد طريقا إلى قلوب الأمازيغيين؛ بل نشطت ضده المعتقدات المحلية في» أفريقية الشمالية«. لاسيما في الأوساط المستضعفة. وعند ظهور المسيحية. أمر القياصرة باضطهاد كل متنصّر؛ فصار الأمازيغيون يدخلون أفواجا في الدين الجديد. فلم ينصرم القرن الميلادي الثاني إلى أن كان المتنصِّرون يعتدُّون بعددهم ويزعمون أنهم يشكِّلون أغلبية السكان. فصار الحكام الرومانيون. ابتداء من سنة 180م. يُنزلون بهم من أصناف التعذيب والقتل ما لم ينزلوه بأي شعب آخر تنصر (C.A. Julien, I, 184...). ولما انقلب الوضع الديني في روما نفسها. اذ تخلى الامبراطور »قونسطانتينوس الاول. Constantinus I «عن الوثنية. سنة 313م. واتخذ المسيحية دينا للدولة. لم يلبث أن ظهر من بين النصارى الامازيغيين ثلة من الزعماء الروحيين أعلنوا انشقاقهم عن الكنيسة الرسمية؛ فسمُّوا بـ» الدوناتيين.Donatistes «نسبة الى» دوناتوس. «Donatus أحد منشطي حركتهم (Prosopographie, 292...303). وانتشرت دعوتهم في البوادي خاصة. واستمرت تنفخ في النفوس روح المقاومة المعنوية

للرومان ثـم للبيزانتيين بعدهم، إلى أن جاء الاسـلام. وذلك رغم ما لقيه» المنشقون «من أنواع التنكيل والتشريد. ورغم مساندة القديس »أوغوستينوس، Saint Augustin «الأمازيغي الاصل للكنيسة الرومانية الرسمية (Les Berbers, I, 63, 64). فهل من المجازفة أن يرى المؤرخ، ذو النظرة الشمولية، في »الدوناتية « سابقة تفسر بوضوح ما حدث في» أفريقية الشمالية «بين الاسلام» الرسمي «الأموي وبين الخوارج المغاربة؟

ألم يكن سبب» الانشقاق «سياسيا قبل أن يكون دينيا في الحالات الثلاث: تنصُّر الأمازيغيين إذ كان القياصرة وثنيين، وانشقاقهم عن الكنيسة الرسمية اذ تنصُّر القياصرة، واتباعهم مذهب الخوارج ثورة منهم على» سنية «الامويين؟ ثم إن من حقنا أن نتساءل: هل اتخذ المغاربة المالكية مذهبا لهم على سبيل المصادفة فقط؟ ولما انفردوا بها أو كادوا؟

2 - الدول الأمازيغية في العهد الاسلامي.

نرى من الضروري، بادىء بدء، أن نناقش المقاييس التي صُنفت بمقتضاها الدول التي تعاقبت على الحكم في أقطار المغرب الكبير، منذ أواخر القرن الثاني الهجري، إلى» عربية «وإلى» بربرية«. نظريا كان ينبغي لتلك المقاييس أن تنبني على مبدءين اثنين لا ثالث لهما:

المبدأ الاول: هو أن كل من صادر الحكم في» أفريقية الشمالية«، كليا أو جزئيا، لمدة ما، في العهد الاسلامي، ولم يكن مسلما، لايمكن أن يعتبر إلا مستعمرا دخيلا. وبهذه الصفة

عومل الفرنسيون والاسبان والايطاليون من قبل الأهالي.

المبدأ الثاني: هو أن كل دولة إسلامية؛ لا يمكن أن تكون إلا دولة إسلامية؛ لا ينبغي لها أن تلتمس مشروعيتها في انتماء سلالي أو عرقي، بل يجب عليها أن تلتمسها في التقوى وصدق العقيدة، رغم ما يترتب على ذلك عادة من المزايدات ومن تبادل القذف بالزندقة أو التجسيم وما إلى ذلك من أنواع الكفر.

هذا المبدأ الثاني لم يعمل به المؤرخون ـ عربا كانوا أو أمازيغيين مستعربين ـ لما صنفوا الدول التي تعاقبت على الحكم إلى» بربرية «وإلى» عربية«. وذلك لأسباب، أهمها أن العرب و«البربر «على السواء لم يتخلصوا من الأنماط الفكرية القبلية التي تستوجب أن يؤرخ للنسب والسلالة والعرق، لا للأرض والوطن.

هذا، بينما تقتضي الموضوعية العلمية أن ينظر إلى جميع الدول الاسلامية التي تتابعت أو تزامنت على أراضي المغرب والجزائر وتونس وليبيا بصفتها» عربية «و» أمازيغية «في آن واحد (وفي بعض الحالات: عربية أمازيغية تركية):

هي عربية بمنزعها الأيديولوجي الاسلامي الذي بموجبه تقدس اللغة العربية وتستلهم الروح المشرقية باستمرار، والذي لا يمكن التخلي عنه علنا في ممارسة الحكم. وما ادعاء بعض الدول الانتماء إلى الدوحة النبوية، وما تأكيد بعضها الآخر، بإلحاح، لصحة انتمائها إلى بيت الشرف، إلا تعزيز وتزكية لذلك المنزع.

وهي أمازيغية بالبيئة الجغرافية وما توفره من سند ديموغرافي بشري لكل مرشح للحكم، وبالتربة السوسيولوجية وما أرسب

فيها التاريخ طوال آلاف السنين من عادات وعقليات، واستعداد لرد الفعل المناسب في كل حالة سبق أن تكررت عبر الزمان. أما اللغة فلا يمكن أن تكون وحدها هي المقياس، لأن الأمازيغي المستعرب، ما لم يُنقل عن» تربته «الاجتماعية الأولى، يحتفظ، من حيث لا يشعر، بما كان متأصلا في شخصيته من مميزات؛ ولأن العربي الأصل المنغمس منذ أجيال في لجة المجتمع الأمازيغي» يتمزغ «من حيث لا يشعر، لا محالة، في مقومات كيانه المادية والمعنوية. أضف إلى هذا كله أن البَـوْن بين الطبائع العربية والطبائع الأمازيغية ليس شاسعا.

ومهما يكن في هذه الاعتبارات من المطابقة أو عدم المطابقة للواقع، فإن المتأمل لتاريخ «أفريقية الشمالية» ـ أي لتاريخ إمازيغن ـ لا يمكنه إلا أن يسلّم بأن في ماجرياته، ودوراته الكبرى المتكررة، وعوامله السوسيولوجية، ما يلفت النظر إلى نوع من التواصل بين ماض سحيق في القدم وماض جد قريب وكأنه حاضر. تتجلى استمرارية التاريخ» المغاربي «في علاقات الحكام بالمحكومين، من حيث إن الرعية تنزع دائما إلى التحرر المطلق، بينما ينزع الحكم المركزي إلى الاستبداد، فتنتج من ذلك أوضاع سياسية دائمة التوتر يتولد فيها العنف من العنف داخل حلقة مفرغة.

وتتجلى استمرارية التاريخ» المغاربي «في الطرائق التي يواجه بها الأهالي التدخلات الأجنبية، على المستويين الرسمي والشعبي. وتتجلى تلك الاستمرارية في توظيف القيم الروحية من أجل التحرر، كلما باءت المحاولات الأخرى بالفشل؛ كما تتجلى

في الاقبال الاضطراري على» المثاقفة، l'acculturation «، خاصة اللغوية، لما فيها من مزايا حضارية، ورغم ما فيها من عوائق ومثبطات لنمو الثقافة الذاتية. وسنبين في الأخير أسباب ركود الثقافة الذاتية بما هو داخلي من تلك الأسباب وما هو خارجي.

ولنا بعد هذا التحفظ المبدئي في تقبل التصانيف الجاري بها العمل أن نستعرض أسماء الدول الأمازيغية التي حكمت لمدة ما إقليما أو قطرا أو مجموعة أقطار أو أقاليم، إما في »أفريقية الشمالية» وإما في الأندلس؛ نوردها في جدول بياني، كما عرَّف بها المؤرخون التقليديون، مع الاشارة إلى اسم كل دولة منها، وإلى مجال نفوذها السياسي. وقد كُتبت في هذا البيان أسماء الدول الكبرى والمتوسطة بحروف بارزة، وأسماء الدول الصغرى والأقل أهمية بحروف عادية. أما تداخل العهود بين بعض الدول المتزامنة أو المتعاقبة، أو اشتراك أجزاء من مجالات نفوذها فراجع إلى تنازعها الحكم بينها أو تداولها إياه.

أسماء الدول	عهد كل دولة	عاصمتها، قواعدها، مجال نفوذها
مملكة كسيلة	64/684 - 69/689	القيروان، إفريقيا
الخوارج المغاربة بعد معركتي شلف وسبو (بكدورة)	123/741 اندثروا شيئا فشيئا في جل المناطق، بصفتهم خوارج.	المغرب الاقصى : أسس مكناسة مدينة سجلماسة 728/140 -729. المغرب الاوسط : صنهاجة في مدينة باجة. المغرب الادنى : هوارة في طرابلس، وبربر جبل نفوسة في قابس.
برغواطة (من المصامدة)	127/745 451/1058	بلاد تامسنا، اي السهول الاطلنتية الممتدة من سلا الى آسفي.
بنو عصام	القرن الثالث والقرن الرابع الهجريان.	مدينة سبتة
مكناسة (زناتيون)	القرن الرابع الهجري القرن العاشر الميلادي	أسسوا مدينتي تازا ومكناس، وحكموا فاس وتلمسان
بنو مدرار (زناتيون)	القرن الرابع الهجري القرن العاشر الميلادي	سجلماسة، والواحات المجاورة.
بنو يفرن (زناتيون)	القرن الرابع الهجري القرن العاشر الميلادي	عاصمتهم : إفكَان، حكموا فاس وتلمسان وسلا وتادلا
مغراوة (زناتيون)	القرن الرابع الهجري القرن العاشر الميلادي	أسسوا وجدة، وحكموا فاس وتلمسان وسجلماسة.
بنو زيري (صنهاجة)	972 / 362 1152 / 547	تونس وشرقي الجزائر : القيروان، المهدية
بنو حماد (صنهاجة)	1007 / 398 1152 / 547	المغرب الاوسط : قلعة بني حماد، بجاية.
بنو زيزي (صنهاجة)	1018 / 408 1090 / 483	غرناطة، بالأندلس
بنو الأفطس (زناتيون)	1022 / 413 1095 / 487	بطليوس، بالأندلس.
بنو ذي النون (هواريون)	1028 / 419 1085 / 478	طليطلة، حكموا ما بين وادي الحجارة وطلبيرة شمالا، ومورسيا جنوبا. اسمهم الحقيقي : بنو أزينون

المرابطون (صنهاجيون)	1043 / 434 1147 / 541	عاصمتها، قواعدها، مجال نفوذها عهد كل دولة أسماء الدول أسسوا مراكش. حكموا المغرب الاقصى وغربي المغرب الاوسط والاندلس وموريتانيا الحالية.
بنو غانية (صنهاجيون)	1146 / 541 1237 / 633	انطلقوا من غرناطة بالاندلس. وحكموا ميورقة وطرابلس الغرب وبلاد الجريد بإفريقيا.
الموحدون (مصامدة وزناتيون)	1147 / 541 1269 / 668	عاصمتهم : مراكش. حكموا المغرب الكبير كله، الى طرابلس، والاندلس. أسسوا مدينة الرباط.
الحفصيون (فرع من الموحدين)	1234 / 631 1569 / 976	عاصمتهم : تونس. حكموا إفريقيا كلها. ووسعوا مجال نفوذهم من جهة الغرب الى تخوم المغرب الاقصى.
بنو عبد الواد أو بنو زيان (زناتيون)	1235 / 633 1509 / 915	عاصمتهم : تلمسان. نازعهم الملك المرينيون من جهة الغرب، ونازعهم إياه الحفصيون من جهة الشرق.
بنو مرين (زناتيون)	1269 / 668 1465 / 869	عاصمتهم : فاس. حكموا المغرب الاقصى، وحكموا لمدة ما الاندلس والمغرب الاوسط وإفريقيا.
بنو وطاس (زناتيون من قبيلة بنى مرين)	1465 / 869 1549 / 956	عاصمتهم : فاس. حكموا المغرب الاقصى. تقلص مجال نفوذهم بالتدريج.